Coptology

الظهور الإلهي

وذكرى معمودية الرب

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٨

www.coptology.org

كل عام وأنتم بخير، عيدُ الغطاس اسمٌ قديم وصلنا من العصر الوسيط، وذَكَرَه المؤرخون كاحتفالٍ عام كان يتم عند نهر النيل، وهو الإله "حابي" في الديانة المصرية القديمة، ولكنه سقط كإله أمام مجد المسيح الذي جاء لكي يبارك المياه، ويعطي لها نعمة خاصة لكي تساهم في ميلاد الحياة الجديدة في سر المعمودية.

لابد أن القراء الأعزاء لاحظوا وجود أيقونة "معمودية الرب" في شرقية المعمودية، إذ تشهد الأيقونة أن ما يُعطى في سر المعمودية هو ما ناله الرب نفسه عندما تجسد وعاش بيننا بالجسد.

في مناسبات الأعياد السيدية مثل الميلاد والغطاس والقيامة، يتأرجح الوعي بين ما سُلِّم في العصر الوسيط، وما سُلِّم في الليتورجيات والقراءات والشرح الآبائي. نقول إننا نحتفل بذكرى معمودية الرب، هذا هو أحد أسباب تسمية هذا العيد بـ"عيد الغطاس"، ولكن الاسم الليتورجي هو "عيد الظهور الإلهي"، هو عيد "ظهور الثالوث القدوس"، وهي المناسبة الثانية بعد استعلان الثالوث في بشارة الملاك لوالدة الإله.

على استحياء، وربما عن خوفٍ من هجوم على الإيمان دام ما يقرب من ١٤٠٠ سنة، نقول: "ذكرى معمودية الرب يسوع". هذا جزء من الحقيقة الأكبر، وهي "ظهور الثالوث"؛ لأن الأرثوذكسية شُيِّدت على استعلان الله كثالوث.

الآب ينادي الابن: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، نداءٌ يمتد إلينا نحن أيضاً الذين صرنا أخوةً للبكر يسوع، وهو نداءٌ أجاب عليه الرب نفسه: "ها نذا والأولاد الذين أعطاني إياهم الله" (راجع عب ٢: ١٣)، وصار نداء الآب يدوّي بقوةٍ في (غلاطية

٤ : ٦): "بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبا abba أيها الآب"، بل صارت مسرة الآب بنا في دعوتنا للتبني (يوحنا ١ : ١٣)؛ لأننا نولد منه، ولأن "مسرة الله" قد أصبحت مثار بُشرى يوم وُلِدَ الرب نفسه في نشيد الملائكة: "وبالناس المسرة". وغرس العيد في الوعي المسيحي تمايز أقانيم الثالوث بشكل واضح، الآب ينادي، والابن يغطس في المياه، والروح يحل عليه بشكل حمامة. ونداء الاب هو نداءُ مَن هو غير منظور، وصارت محبته منظورة في مجيء الابن وتجسده، وفي نزول يسوع إلى المياه، فتقدَّست المياه ودخل الكون القديم تقديس الخليقة الجديدة، وجاء الحدث الأكبر، وهو مسحة يسوع بالروح من الآب مباشرةً وليست بوسيلة بشرية، أو من خلال المؤسسة الكهنوتية لسبط لاوي، ولا حتى باختيار الشعب ليسوع لكي يكون "مسيح الرب" مثل ملوك بني اسرائيل. ترك الآب كل هذه التدابير لكي يصبح تدبير الحياة منه وله وليس بوسيلة بشرية.

وجاء الروح بشكل حمامة، ومهما قيل من تفسير، فهو مقبولٌ وجيدٌ، ولكن ليس للروح شكلٌ، بل "في شكل حمامة". أخذ الشكل الذي لا يتوقعه البشر، فهو "الرب المحيي" واهب الحياة لكل ما هو حي، واستقر على يسوع ومسحه؛ لكي نأخذ نحن من يسوع ذات المسحة: "أما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعرفون كل شيء" (١يوحنا ٢ : ٢٠). وظهور الروح بشكل حمامة، يُلجِم ألسنة الذين يحاصرون الروح في شكلٍ معيَّن مثل "ألسنة نار"، كما حدث في يوم العنصرة، فالروحُ حُرٌّ: "وحيث روح الرب فهناك حرية"، ولكن الإستعلان الإلهي الذي ينادي فيه الثالوث الإنسانية، جديرٌ بالإهتمام.

أولاً: هو أساس المعمودية في الكنيسة الجامعة. ولم يضع الآباء الاعتراف "بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا" في قانون الإيمان لمجرد إضافة بند، بل هي، أي المعمودية، باب دخولنا تدبير الخلاص وشركتنا في بنوة الابن. ما أعظم أن يشترك المخلوق في عطية إلهية ترفع عنه أسمال وقيود الوجود البيولوجي الطبيعي، أي الولادة من أب وأم ومن إرادة إنسان إلى الولادة من الله. وحينما نُولد من الله، نعطى البنوة. وما يضاف إلى المخلوق من العدم، لا يحوِّل المخلوق إلى خالق؛ لأن إثارة الخوف من عطية الله هي زوابع الشيطان

لكي نُصاب "بالعمى الروحي"، ولا نرى أنفسنا إلا ثمرة الولادة الجسدانية.

ثانياً: سر المسحة، وهو سر الميرون ومسحة الروح القدس، تعطى حسب التسليم الكنسي، بالرشومات وبنفخة الروح القدس التي وُهِبَت للتلاميذ بعد قيامة الرب (يوحنا ٢٠: ٢٢). والبحث في: متى يعطى الروح القدس؟ له ردٌّ صارم: "ليس بكيل يعطي الله الروح" (يوحنا ٣: ٣٤)؛ لأن الروح في حركة دائمة وعطاء دائم، هو ليس مثل وجبة طعام نأكلها وتنتهي، وإلا كيف نفهم صلاة الساعة الثالثة ونداء الكنيسة للروح القدس: "أيها الملك السمائي الذي .. هلم تفضَّل وحِل فينا وطهرنا من كل دنس أيها الصالح وخلص نفوسنا". العطاء الدائم والعمل الإلهي الدائم صعبٌ على من يجعل الأمور المادية مقياساً للأمور السمائية: "قارنين الروحيات بالروحيات"، هذه هي قضية وإفراز الرسول بولس. والمسحة التي أُضيف إليها حنوطٌ، هي إضافة موت الرب يسوع وقبره ثلاثة أيام إلى الروح القدس، ليس للذكرى، بل لأن موت الرب يسوع وقيامته فتح لنا باب شركة الروح القدس.

تقديس المياه:

هذه ليست "ذكرى" بالمعنى البروتستانتي الشائع، أي تذكُّر حدث تم في الماضي، فليس في الله ماضٍ، ولا يوجد زمان في الله، بل الله في الزمان، وما قام به الثالوث لا يصبح قديماً، بل هو دائمٌ لأن حضور الله دائمٌ لا انقطاع فيه. وما أعظم أن يأخذ كل إنسان نصيبه في مياه "لقان الغطاس"؛ لأنه يدخل بذلك تدبير التجديد، ويلمس تقديس الروح القدس، ذلك التقديس الذي لا يصبح قديماً، بل هو دائماً جديدٌ.

ليُقدسنا الثالوث القدوس، ويمنحنا يقظةً روحيةً لكي نفهم عظم النعمة التي تُوهَب لنا دائماً.

د. جورج حبيب بباوي